تاريخ النحو - ٢

ذكرنا في العدد الماضي من هذه المجلة المفهوم الأول لكلمة « تاريخ النحو » وإنا ذاكرون في هذا العدد المفهوم الثاني :

تاريخ النحو : علم يُراد به دراسة نشوء هذا العلم وتطوره ودراسة أشهر رجاله وكتبهم ومعرفة المراكز التي كان لها أثر في المذاهب النحوية من بصرية وكوفية وبغدادية .

ومصادر بحثنا هذا ثلاثة : (١) كتب النحو فإنها تعرفنا طرفاً كبيراً من أمر هذا العلم وتطوره ؛ (٢) كتب تراجم النحاة ومن إليهم ؛ (٣) كتب الأدب وتاريخه . وقبل البدء بأمر نشوء هذا العلم نريد أن نُلمّ إلمامةً يسيرةً باللحن عند العرب فنقول :

يرى بعض العلماء من قدماء ومحدثين أن بعض العرب الجاهليين كانوا يخطئون ويلحنون (١) ويرى هؤلاء أن العربي لا يُحتج بقوله فيما يخالف فيه قبيلة ، وحجتهم : أن اللغة ليست ملكه يُصرّفها كيف شاء ، ولكنها ملك مُشترك ووسيط بينه وبين الآخرين فإن حاد عما اصطلحوه فقد ضلّ وأخطأ .

ويرى جمهور العلماء أن العربي لا يُخطئ وأنه حجة في كل ما يقول لأنه صاحب اللغة ومصرفها ، وأن العربي حجة في كل ما يقول ، وأن اللحن والخطأ ما عُرف في العرب قط وليس هذا الذي يستدل به أصحاب الرأي الأول من الأمثلة إلا

(١) من تلك الأخطاء ما عده الآمدي في الموازنة على لسان صاحب أبي تمام ، ومنها ما عده ابن جني في ثنايا كتاب الخصائص ، والسيوطي في المزهر ، والقاضي الجرجاني في مقدمة الوساطة بين المتنبي وخصومه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

روايات شاذة ضعيفة (١) ، وأن اللحن — بمعناه المصطلح عليه — ما عرف إلا حين كثر اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم ، وقد كان أول بارق من بوارق اللحن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حين اختلط العرب بغيرهم من الحمراء ، فقد كان في هؤلاء من يرتضخ لكنة فارسية كسلمان الفارسي ، ومنهم من يرتضخ لكنة رومية كصهيب ، ومنهم من كانت له لكنة حبشية كبلال وغيره .

على أن أصحاب هذا الرأي لا ينكرون أن العرب لم يكونوا سواء في الفصاحة ، فقد كان في العرب ألفاف ضعاف لم تقوَ طبيعتهم العربية قوةَ غيرهم من الفصحاء والشعراء والحكماء .

وأصحاب هذا الرأي يقولون — كما تقدم — إن اللحن عُرف في صدر النبوة ، فقد رووا أن رجلاً لحن بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : أرشدوا أخاكم فقد ضلّ (٢) . ثم لما فتحت البلاد وانتشر العرب في أقطار الأرض ، وعمت لغتهم حيث ذهبوا كثر اللحن ، وكانوا إذا سمعوا اللحنة تقززت أبدانهم واحتقروا صاحبها ؛ قالوا : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بقوم يرمون فاستقبح رميهم ، فقال : ما أسوأ رميكم ، فقالوا : نحن قوم متعلمين ، فقال : لحنكم أشد عليّ من فساد ألسنتكم (٣) . ورووا أن كاتباً لأبي موسى الأشعري كتب الى عمر فقال : « من أبو موسى الأشعري ... » ، فكتب إليه عمر لما قرأ المكتوب : « عزمت عليك لما

(١) يقول الأستاذ الرافعي في تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٢٣٩ : « .. نقطع بأن اللحن لم يكن في الجاهلية البتة ، وكل ما كان في بعض القبائل من خور الطباع وانحراف الألسنة فإنما هو لغات لا أكثر » (٢) يقول الأستاذ في الكتاب نفسه ج ١ ص ٢٣٩ : « .. فلو كان اللحن معروفاً في العرب قبل ذلك العهد ، لجاءت عبارة الحديث على غير هذا الوجه لأن الضلال خطأ كبير والإرشاد صواب أكبر منه في التضاد ، بل إن عبارة الحديث تكاد تنطق بأن ذلك اللحن أول لحن سمعه أفصح العرب (ص) . أقول : لا يخفى ما في قول الأستاذ من غرابة وخفاء (٣) الأضداد لابن الأنباري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ضربت كاتبك سوطاً » . ولما نشأ الجيل الجديد في الإسلام اضطربت الألسنة أكثر لوفرة الدخلاء والدخيل في اللغة ، فاغتم الأمراء لهذا خصوصاً حينما وصل اللحن الى القرآن إلى أن قام أبو الأسود الدؤلي رضي الله عنه ووضع طريقته التي سنتحدث عنها في القريب ؛ فصار الآباء يدربون أولادهم ومواليهم على الطريقة الجديدة التي صنع أبو الأسود كما أخذ الأمراء والأسرياء من العرب يفرون بأولادهم إلى البادية ليتخلق الاولاد بخلق أهل البادية وليتفصحوا لئلا يحيق بهم غضب الخلفاء ؛ فقد رووا أن عبد الملك بن مروان كان يستسقط من يلحن في حضرته . وقال العتبي بسنده : « استأذن عظيم من أهل الشام على عبد الملك وكان بين يديه قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : يا غلام غطها ، فلما دخل الرجل فتكلم لحن ، فقال عبدالملك : يا غلام اكشف الغطاء فليس للاحن حرمة (١) . وقد كان اللحن أكثر مايكون انتشاراً في الاسواق والمجامع العامة ، حيث كان العرب يجتمعون بشذاذ الاعاجم ، ولهذا نجد العلماء يسمون الالفاظ الدخيلة المرذولة ألفاظاً سوقية نسبة إلى هذا .

فلما جاء عصر العباسيين أخذ اللحن يزداد شيئاً فشيئاً لأن عصبية العباسيين للغة لم تكن كعصبية الأمويين للعربية والعرب ، فعم اللحن وانتشرت العامية بين الناس وتقهقرت الفصحى الى البادية حيث كانت .

اختلطت العربية الفصيحة بلغات أهل الأقاليم المفتوحة فتعددت اللهجات واختلفت لغة المشرق عن لغة المغرب والاندلس ، وقد وضح ذلك الإمام ابن خلدون إذ يقول : « ... فمن خالط الاعاجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الاصلي أبعد ، لان الملكة إنما تحصل بالتعليم وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الاولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي كانت للعجم ، فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الاولى ... أما إفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ولم يكن يخلو عنهم مصر ولا جيل .. وكذا أهل المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك فخالطوهم ، تداولت لغاتهم في الاكرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولاً وولايات وأظآراً ومراضع فسدت لغتهم لفساد الملكة حتى

(١) الاضداد لابن الانباري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انقلبت لغة أخرى ، وكذا أهل الاندلس مع عجم الجلالقة والإفرنجة » ، ثم يذكر أن الفضل الاكبر للقرآن في حفظ اللغة العربية ، ولولاه لم يبق لها أثر ولا عين .

* * *

هـذه نظرة عامة في فساد اللغة في المدن ، أما البادية فلا شك أنها حافظت على العربية لبعد أهلها عن الحواضر والاسواق والاختلاط بالاعاجم ، ويظهر أن البادية ظلت خالصة من الفساد الى القرن الرابع للهجرة فقد وجدنا في كتب الادب والتاريخ أن العلماء كانوا يتقبلون من الوافدين عليهم من الاعراب وينقلون عنهم اللغة والشواهد والاخبار حتى اذا لان جلدهم وبدت العجمة على ألسنتهم تركوهم : وممن نعرف من هؤلاء العلماء الذين كانوا ينقلون عن الاعراب الإمام أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي ٣٩٢ هـ فقد وجدناه يذكر في كتاب الخصائص غير مرة أسماء بعض الاعراب الذين يَرِدون الحواضر يبيعون اللغة ؛ قال ابن جني : « وقد طرأ علينا مرة أحد من يدعي الفصاحة البدوية ويتباعد عن الضعفة الحضرية فتلقينا أكثر كلامه بالقبول وميزناه تمييزاً حسناً ، ثم ركب في بعض شعره قياساً غير صحيح ، فطرحوا لغته ، وكان من أمثل من رأيناه ممن جاءنا (١) ، فهذا يؤكد لنا ان العربية كانت سليمة في القرن الرابع في البادية ؛ كما يؤكد لنا انه منذ ذلك العصر اخذت لغة البادية تضعف ، واما بعد العصر الرابع فلا نجد إلا نصاً واحداً وهو جدُّ غريب ذكره ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ في معجم البلدان في مادة « العكوتين » وهما اسما جبلين مشرفين على زبيد باليمن ، ومن احدهما عمارة ابن ابي الحسن الشاعر من موضع يقال له الزرائب ، قال الراجز :

إذا رأيت جبلي عَكادِ وعكوتين من مكان بادِ
فأبشري يا عين بالرُّقادِ

وجبلا عكاد فوق مدينة الزرائب واهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ولم تتغير لغتهم بحكم انهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحة ، وهم اهل

(١) الخصائص .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون اه . » فأنت ترى ان ياقوتاً الثقة يروي ان بعض العرب في عصره « اوائل القرن السابع » كانوا محافظين على الفصيح وهو امر عجيب واعجب منه ان يجيء بعده المجد الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط المتوفى سنة ٨١٧ فيقول في مادة « ع ك د » ان عكاد جبل باليمن قرب مدينة زبيد وإن اهله باقية على اللغة الفصيحة . واغرب واعجب ان يجيء الإمام المرتضى الزبيدي اليمني المتوفى سنة ١٢٠٥ فيقول إنهم لا يزالون الى الآن وقال : لا يقيم الغريب عندهم اكثر من ثلاث ليال خوفاً على لسانهم . ولا نشك في صدق هؤلاء الائمة فإنهم موثوقون ، وإن الإمام الفيروز آبادي قد رحل الى اليمن وسكنه طويلاً ، وكذلك الزبيدي ثقة يمني .

يتبع :

احمد طلس